الفصل التاسع عشر

وطن الإسماعيلية

وصلنا إلى سفح مسيل خيرة بعد حوالي ١٥ دقيقة بعد مغادرتنا للمعسكر وشرعنا فوراً في تسلق له مرهق وفي أكثر ساعات اليوم حرارة. يوجد عند السفح مسيل آخر يسمى شرج، الذي يتصل به، كان عرض بطن المجرى الحجري هناك حوالي ٤٠٠ ياردة وقد كان ينحدر أول الأمر بلطف وفي مجرى متعرج حتى وصلنا إلى موقع دخول شعيب العين، الذي يوجد فيه نبع ماء مستديم في موقع متقدم في بطنه. تقف شجرة سدر عند موقع الالتقاء لمسيلين مسمى أحدهما علبة السيد -يعتقد أنه قد استراح أسفلها أحد أعيان المكارمة-، أو فقط علبة العين -إشارة إلى النبع-. هذا وقد انتشرت العديد من الأشجار في هذا المجرى الكئيب حتى وصلنا إلى مفترق له، والذي من عنده اتجه طريقنا ناحية الغرب على مسيل رافد يسمى خلف، بينما قاد طريق أقصر، لا يناسب الحيوانات، مباشرة إلى أعلى.

كنا نسير راجلين جميعاً، لنعطي الجمال بعضاً من الراحة، وذهبت أنا عبر الطريق الآخر الذي يسمى الصدر. كان عرض المسيل هنا حوالي ٢٠٠ ياردة وأخذ يضيق إلى نصف هذا العرض مباشرة عند جلمود يرتفع إلى ١٥٠٠ قدم على اليسار وعند سلسلة سهله على اليمين، والتي تعرج الطريق عليها، وذلك لأن

المجرى الفعلي كان بالطبع جافاً ومختنقاً بالجلاميد المتساقطة. اتحد طريق الجمال مع طريقنا عند مضيق سهل يقع قليلاً إلى أعلى، غير أن الطريقين انفصلا مرة أخرى عند رأس مسيل شقيقة والذي ينحدر إلى ١٠٠٠ قدم نحو مجرى خيرة، إلاَّ أنه مهد لنا طريق مختصر يقود إلى صدع آخر في الجدار يسمي شربة البغدادي، على ذكرى زائر من العراق، كان قد سقط في اللجه وقتل نفسه. استمر الطريق منحدراً ولكنه لم يكن صعباً مع وجود مسايل جانبيه متكررة تدخله، بينما، وبالقرب من قمة صدر، علماً بأننا لم نصل بعد إلى قمة الممر، كانت الصخور تحمل عدداً من النقوش الثمودية وبعض الرسوم، متضمنة ثعباناً ووعلاً.

يجري مصرف ضحل على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر يسمى أليب إلى رأس المسيل، كاشفاً عن مساحة معتبرة لعدد من القبور البدائية. يجري الطريق الرئيس الآن، وبسهولة، أعلى الجزء الصعب الأعلى لصدر إلى موقع المضيق، والذي من جانبه الآخر يجري مسيل يسمى أسجعات الأثاب إلى أسفل حيث الجزء الأسفل من مجرى بدر (قب). بينما تجري تعرجات أخرى قصيرة أعلى السفح المنحدر إلى حيث القمة الفعلية لكل من الجلمود والمسيل. يسمى هذا الموقع برأس نقب الخيرة، وترتفع إلى ٦٤٠٠ قدم فوق سطح البحر، وإلى حوالي ١٢٠٠ قدم فوق خنق وتشتمل المساحة على ممر ضيق، محفور عبر حاجز صخري يقود إلى رأس منحدر قصير وسهل يسمى شعيب مجزعة الذي يقع إلى أسفل على الهضبة العالية الفعلية. كانت قمة الحاجز حوالي ١٥٠ قدماً أعلى من الممر وتسيطر على منظر مدهش للجبال المتدحرجة ناحية الجنوب.

استغرق تسلقنا الممر أقل قليلاً من الساعتين. امتطينا الآن الجمال وتحركنا إلى أسفل سالكين منحدر مسيل شرقة السهل لنقابل مجرى يسمى سلف بن نجم الذي يقبل من جهة الشمال الغربي متجهاً إلى رأس شعيب مجزعة، الذي يجري شرقاً بدوره ليقابل مضيق قب. يقع طريقنا أعلى سلف بن نجم إلى عند رأسه الذي لا يبعد كثيراً وذلك حينما تتبعنا سلسلته في اتجاه غربي موازٍ لشعيب أعرب وهو رافد آخر من روافد قب. أوصلنا هذا إلى هضبة متدحرجة صعبة صخرية عليها غطاء نباتي جديد خاصة أشجار القرظ، وشجيرة تفرز سيقانها لبناً تسمى شرفه، وهي ليست شبيهة لنبات الدني العطري في حضرموت. يرتفع أعلى هضبة قرة هذه والتي يمكن رؤية كل من بدر وقرن سبط فيما يليها، إلى حوالي ٦٧٠٠ قدم فوق سطح البحر، وعليها قشرة رفيعة سمكها حوالي ٢٠ قدماً من صخر رملي يعلو فوق الصخور النارية التي قد تحفرت في كل اتجاه بخطوط الصرف العديدة. تعرج الطريق بين رؤوس هذه الخطوط العديدة تحاشياً لها، وذلك بالسير على المناطق المرتفعة، وقد كانت مسيرة مرهقة.

وصلنا إلى مقبرة مهجورة يقال إنها تذكار لمعركة قديمة وقعت بين يام وجيرانها سنحان (قحطان) في وادي تثليث. ثم وصلنا بعد قليل إلى عدد أكبر من القبور ووجدنا لوحاً من الصخر عليه نقوش باللغة العربية العادية. وجدنا أيضاً بجوار الطريق، صخرة وعليها اسم إحسان بن هاشم، الوكيل الفعلي للرئيس للمكرمي الغائب داعي. صعدنا تدريجياً إلى مستوى أعلى للهضبة، ونحن الآن على ارتفاع ٦٨٠٠٠ قدم، فوق سطح البحر عند كومة حجارة بالقرب من الرف الصخري الرملي تعلم رأس شعيب ملطي الذي ينساب أيضاً شرقاً إلى قب. كانت هنالك أكوام عديدة من الحجارة بالقرب من هذا الموقع إلى جانب مواقد للنار

كبيرة تسمى محنذاً والجمع محانذ، ولعله كان موقعاً تعسكر فيه القبائل، كلها كانت مبنية وبعناية من ألواح لصخور رملية وكانت كبيرة الحجم للحد الذي يسمح بوضع شاة كاملة في قدر فوقها. مررنا حول رأس شعيب الملطة ووصلنا إلى مجموعة أخرى من أكوام الحجارة، كان أحدها يحمل نقشاً من ثلاثة أحرف، في موقع يسمى منسه على رأس واديين عريضين هما غضيف وتنمة واللذان يتحدا فيما بعد ناحية الشرق لينسابا في قب. تتبع طريقنا اتجاه صخرة تنمة، والتي تقع على مسافة ١٠٠ قدم أسفلنا في الصخر الجرانيتي، وذلك لبعض الوقت، ثم هبطنا آخر الأمر إليها في درب مائل محفور على الصخر. لقد غربت الشمس منذ نصف الساعة وأظلم المكان، غير أن بدر نفسها كانت علي بعد مرمى حجر منا، وكنا مكتفين بدخول عاصمة المكارمة تحت ستار الليل، تاركين استكشافها إلى الصباح.

لقد أعد لنا معسكرنا فوق الرمال الباردة البيضاء في بطن وادي بدر الذي كان لا يزيد عرضه عن ٢٥ ياردة في هذا الموقع وكان مسوراً على الطريقين بسور كثيف من أشجار التين البري التي تقدم ظلاً كافياً كل الوقت إلاَّ عند منتصف النهار، حينها كنا نجلس تحت الأشجار نفسها. كان موقعاً ممتعاً. قابلنا هنا محمد النشمي وذلك عند وصولنا بعد أن قدم لجمالنا المرهقة كمية وافرة من البرسيم وأعواد الدخن التي كانت هنا نحيلة أكثر وكانت أكثر عصيراً مقارنة بتلك في نجران وفي وادي حبونا. لم تضع الجمال وقتها في تقرير صلاحية البرسيم لها وبعدها ومما يدعو للتسلية هو أن نرى الرجال وهم يقدمون أعواد الدخن بأنفسهم للجمال وقد غلفوها بأعواد البرسيم! وظلوا يمسكون بالعلف إلى أن يتأكدوا من إدخاله تماماً إلى أعماق فم الحيوان وحتى يتأكدوا من أن الخليط قد تم ابتلاعه تماماً. لم يكن هذا

موضوع ضرورة اقتصادية لأنني على كل حال سأقوم بتسديد الفاتورة لمن يهمهم الأمر، ولكن لعلمهم بأن البرسيم مادة دسمة ويخشون أن يسبب البرسيم الإسهال للحيوانات في مثل هذا الطقس البارد. كانت أدنى درجة للحرارة في تلك الليلة، تم تسجلها، هي ٢٣ درجة فهرنهيت أو تسع درجات تحت الصفر. سجل مقياس الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً درجة الصفر، إلاَّ أن الشمس قد أدفأت الجو أثناء النهار لتعطينا أقصى درجة حرارة في الظل وقد كانت ٩٧ درجة، وكانت الليلة التالية هي أول ليلة ملبدة بالغيوم منذ أن غادرنا نجران، وقد كانت أدفأ كثيراً إذ كانت درجة الحرارة الدنيا هي ٣٥ درجة.

بعد أن أشرف الأمير على راحة حيواناتنا، صحبنا كلنا إلى منزله في البلدة حيث وجدنا هناك وليمة رائعة في انتظارنا وقد تناولناها بما يجب من الاهتمام بعد طعام المجاعة الذي كنا عليه في اليومين السابقين. كان كل أتباعه حاضرين وكذلك حضر الموظفون ولكن لم يكن هنالك أحد من الأعيان المحليين ولذا كان الجانب الاجتماعي للعشاء فاتراً. عدنا لهذا السبب بأسرع ما نستطيع إلى المعسكر، فقط لنفاجأ بإزعاج آخر هو حضور الأمير وعدد من موظفيه يرغبون في الاستماع إلى الأخبار التي كانت خليطاً تلك الليلة افتتاح جلسات اللجنة الملكية الفلسطينية، القصف الجوي على مدريد، واعتراف النمسا وهنغاريا بضم الحبشة إلى إيطاليا. علق محمد النشمي بعد أن استمع إلى هذه الأنباء بقوله: إن فلسطين لابد وأن تكون في موقف صعب بعد كل هذا القصف الجوي! خطر بذهني أنهم كلهم لم يفهموا ما قد سمعوه. أعترف بأنني بعد ليلتين (١٤ نوفمبر) أخفيت خبراً مهماً، كان عليَّ أن أطلع رفاقي عليه. لقد بحثنا عند الغروب ذلك المساء بلا فائدة عن هلال رمضان الجديد، وهيأنا أنفسنا، في شيء من الارتياح، لقضاء يوم آخر

عادي قبل أن يبدأ الصباح. لقد علمت من إذاعة القدس في وقت متأخر من المساء أن الهلال قد شـوهد هناك وقد أعلن الصيام ابتداء من الغـد، غير أنني رأيت من الأفـضل ألاَّ أخـبر أحـداً عن هذا الأمـر، إذ لا يزال الأمـر مـوضع نقـاش عند السعوديين في الجزيرة العربية إن كان الهـلال قد شوهد في بلاد أجنبية أيكون إثباتاً شرعياً يعتمد ليثبت عدم ضرورة مشاهدته في الجزيرة العربية؟

ترتفع بدر إلى ٦٦٠٠ قـدم فـوق سطح البحـر، وتقع في وادي ضـحل هو وادي بدر الذي تكون بالتقاء مـسيلين، هما خضراء وخنق، وهمـا يقبلان من عند طرف الهضبـة العالية في الربع الشمالـي الغربي. يتصل شعيب مـهجر الذي يقع أسفل القرى مع وادي بدر، ويصـرف وادي مهجر الجزء الغربي من الهـضبة، ثم يتصلان بعد مـسافة قصيرة، مع مجرى تنمـة - غضيف لينسابا جنوباً باسم وادي قب ليتصلا مع وادي حبونا بالقـرب من آل فايد. تتصل بهذا النظام فروع تصريف عبيدة عند نقاط مـختلفة، غير أن وادي الخضراء، وعلى جانبـيه رأسان هما: قرن سبط ناحية غرب الشمال الغربي وشعيب خنق، والذي يقع رأسه في مضيق ممتاز، وقد قمت بزيارته في وقت لاحق، هذه هي الخصائص الرئيسة التي يعود إليها هذا الازدهار الذي تستمتع به بدر كقرية.

لا بد وأن تكون بدر في أيام أوجها في عـصر المكارمة مركزاً ذا أهميـة عالية وعظيمة حكماً بما يشـهد عليه ما تبقى من قصورها ومبـانيها والفلل ذات الحدائق وما شابه ذلك. بقى اليـوم هيكلها، مشققـاً ومدمراً، وقد ذهبت عنها الحـياة وقد حافظت التربة على طهارتها، إن لم تهمل مستقبلاً. قد قيل: إن الكثير من الضرر المتعمد قد وقع على المباني والممتلكات الخـاصة بقادة المكارمة أثناء الاحتلال اليمني لهـذه المقاطعـة عام ١٩٣٣-١٩٣٤م، بينمـا لم يتضـايق الأتراك، أثناء احتـلالهم

الطويل المدى لليمن، من عام ١٨٧٢م إلى ١٩١٨م من بدر ونجران وتركوا المكارمة فيها لقيادتهم المؤقتة التي صاحبت مكانتهم الدينية بين قبائل يام. تمزقت الآن آخر بقايا كل من بدر ونجران. ولا يحكم الحشاشون بعد اليوم في أراضي سلفهم. لقد سقطت حتى الكرامة الدينية المرتبطة باللقب المكرمي «داعي» وذلك بوفاة آخر حامل له قبل العهد السعودي، وهو علي محسن في نجران في الشهر الذي سبق زيارتي الثانية، ولم يسمح لسلفه الطبيعي، حسين أحمد، الذي يعيش في هذا الوقت في المنفى في مكة، باستخدام اللقب.

اختفى هكذا أثر لسلطة قديمة عاشت تلك السلطة -بالطبع- على ما كان يسهم به المتعصبون لها بالمال والعتاد في مقابل خدماتها الدينية، غير أن كل هذا قد انتهى الآن. قرر ابن سعود فور انضمام نجران أن يدفع جملة واحدة كل توقعات الأسرة المكارمية لمنحة المعاش على حساب الحكومة المركزية. لقد تقرر، بعد التقييم الكامل لكل الأحوال، أن يتلقى كل شخص على قيد الحياة من أفراد المكارمة يقيم في منطقة يام، سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً - مبلغاً من إدارة المالية السعودية يُعَد معاشاً سنوياً مدى الحياة ويتألف من ١٥ ريالاً نقداً و١٦ صاعاً لكل فرد (٦,٥ كيلوجرامات ونصف الجرام أو ١٣٥,٥ رطلاً ونصف الرطل) من القمح والدخن والتمر. لا يبدو هذا مخصصاً أميرياً، غير أنه -وليس لدي أدنى شك- كان كريماً بما فيه الكفاية بالنسبة للأحوال في بلاد يام، بينما بالطبع، احتفظ المكارمة بكل مساكنهم وأملاكهم الزراعية ويمكنهم إضافة الكثير إلى معاشهم هذا.

فقد أجري إحصاء للمكارمة الذين يعيشون في نجران وبدر وأجزاء أخرى من أرض يام مثل وادي حبونا وذلك لأجل تطبيق هذا القرار، ووجد أن العدد الإجمالي الذي يخصه الأمر هو ١٤٥ شخصاً فقط. كان العبء الأوّلي الإجمالي

الواقع على الخزينة السعودية، والذي سينقص تدريجياً بوفاة صاحب المعاش الأساسي، في حدود ١٧٥ شخصاً بمعدل ريالين (قُل ١١٠ جنيه استرليني ذهبي) وبعضاً من ٢٦ طناً من المواد الغذائية.

تتألف المجموعة المكارمية في بدر في هذا الوقت من عشرة أفراد ذكور بالغين وتابعيهم، بينما كانت هنالك أسرة في مجمع، كما رأينا، في وادي حبونا، والبقية كانت في نجران. وإذا اعتبرنا أن الأسرة الواحدة تتألف من سبعة أشخاص، فإننا نحصل على مجموعة ٧٠ من المكارمة في بدر، بما في ذلك إحسان بن هاشم وكيل عميد الأسرة (حسين أحمد) وإبراهيم وهو خال بعيد وصل حديثاً من الرياض. وقد بدوا لي كأناس متواضعين بلا هالة حول نبلهم القديم، برغم أنهم يبدون سعداء عند الحديث عن تقاليدهم القديمة والتي يقولون أن الأتراك قد احترموها بتركهم لها ولحالهم. توجد البعوث الرئيسة للمكارمة في ضاحية حشا في المدينة غير أن هذا الجزء قد تضرر كثيراً على أيدي اليمنيين، ويبدو معظم الناس الآن وهم يعيشون في فللهم.

لا يبدو أن تأثيرات حركة المكارمة قد انتشرت كثيراً بين العناصر البدوية في يام التي -ونقول الحقيقة- كانت ذات احترام قليل للدين. لذلك، يوجد أتباعهم بين الأقسام المستقرة للقبيلة وفي ثلاث مناطق رئيسة. ينتمي معظم السكان في بدر -وهم أساساً زراعيون- إلى قبيلة واعلة من آل فاطمة، وهذا القسم هو الذي تحت الظروف الحالية لا يزال يكن بالولاء وفي شراسة للنبالة القديمة ويتعلق بالقيادة الدينية حتى في الشدة. يمكن القول -بصفة عامة- إن مذهب المكارمة أو الإسماعيلين قد تمتع بقبول واسع نسبياً في كل الأجزاء المستقرة المأهولة في محافظة نجران، بما في ذلك حبونا وبدر، خلال القرون الثلاثة الماضية، ويبدو أنهم

سيختفون الآن لعدم وجود الاهتمام الشعبي الصادق وعدم التشجيع الرسمي للإدارة الجديدة التي تمتعت بالميزة العظيمة في كونها قد استطاعت بالفعل أن توضح ليس فقط اتباعها العنيد لمبادئ الإسلام، بل مقدرتها على فرض السلام والأمن فوق أرض نادراً -إن لم يكن مطلقاً- ما تكون قد تمتعت بهاتين العطيتين. إذا ماتت الإدارة الإسماعيلية كما افترض. على أنه لن يكون خارج الموضوع هنا أن أسجل للذكرى، بعض الحقائق البسيطة حول تاريخ هذه الحركة في منطقة نجران. ارتكز معظم ما سيرد من معلومات على دراسة خاصة عن المكارمة، تمت قبل سنوات أعدها الشيخ فؤاد حمزة، الذي كان وكيلاً لوزير الخارجية في فرنسا (حتى عام ١٩٤٢م) وتركيا، وحيث ظل هناك حتى عام ١٩٤٣م.

امتاز الشيخ فؤاد بأنه جمع كل مادة دراسته من حسين أحمد نفسه، عميد الأسرة الحالي، وكما أظن، في مقابلة له مع علي محسن، الذي كان على قيد الحياة حينها، في نجران، فقد ساعده حسين أحمد بنقل فقرات من الكتب المقدسة للإسماعيلين والتي -بالطبع- احتوت على مادة سرية كثيرة حول المذاهب المعدة أصلاً لفئة قليلة من الناس التابعين لهذه الطائفة، ولم يكشفها له. لا أدري ماذا حدث لهذه الكتب من ذلك الوقت، وربما لا تزال في ملكية حسين أحمد في مكة.

الإسماعيليون فرع صغير وسمري من فروع الشيعة وأيضاً يسمون بالسبعية من الحقيقة الرئيسة في أنهم يعترفون فقط بالأئمة السبعة الأول من أسرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنهم ملهمون تماماً، ويعدون الأخير منهم -وهو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق- الإمام المنتظر أو المسيح. يوجد طائفة أخرى معدة لفئة قليلة، تابعة للشيعة، وتسمى الاثنا عشرية وتختلف عن الإسماعيلية باعترافها

بكل الأئمة البـالغ عددهم ١٢، ينتـهون إلى جعـفر العسكري (المـهدي المنتظر)، ويرفضون أن يـكون محمد بن إسمـاعيل هو الإمام السابع لهـؤلاء الأئمة، وذلك لأن الإمام السابع في قائمتهم هو الإمام موسى الكاظم. يكفي هذا لعرض الحقائق الرئيسة للموضـوع. تفرع الإسماعيليون، بمرور الوقت، إلى فروع مخـتلفة، كما هو متوقع، تحت قيادة رؤساء محليين مـوقرين، وليس من الضروري ذكر أسمائها كلها حتى لو استطاع المرء ذلك! كانت الفروع الثلاثة الرئيسة هي:

١- الخواجيـة، ومقرها الهند تحت القيادة الـتقليدية للأغاخان، الذي -فـيما أعتقد- يزعم بتسلسل خطي لنسبه من الحشاش الأصلي.

٢- الداؤدية ويتمركزون في بومبي تحت قيادة طاهر سيف الدين.

٣- السليمانيـة وأصل مقرهم اليمن وهم يعترفـون الآن بقيادة مكرمي داعي الحالي والذي له قـائم مقام في بدر باغ في الهند لجـمع وإرسال مسـاهمات ذلك القطر إلى الجزيرة العربية.

يبدو أن فرع السليمـانية التابع للإسماعيليـة قد نشأت مؤسسته التـبشيرية من بلدة تسـمى طيبـة وهي ليست بـالبعـيدة إلى جنوب صنعـاء، غيـر أن المبشـرين الأصليين في اليمـن كانوا هنوداً من الهند. يبدو أن عـدداً من المبشـرين الهنود قد نشـروا دعـوتهم في السنـوات بين ١٥٦٧م و ١٦٧٧م في جنوب غـرب الجـزيرة العربية، بافتـراض أنهم يمثلون للأصل الأبوي له وممولون بواسطته والذي ربما كان هو الفرع الذي يسمى الخواجـية أو الشمسية. كان بين هؤلاء المبشـرين، مهما كان الأمر، من الهنود، شخص يسمى داؤد بن عجب، وآخر يسمى سليمان بن حسن الهندي، وقد حدث الانفصال أو التبـاعد بعد وفاة داؤد وأدى هذا إلى بروز فرعي الداؤدية والسليمانية للحركة. يبدو نتيجة لهذه الحادثة، أن الداؤدية حصرت نفسها

في النطاق الهندي، تاركة العمل العربي بكامله للسليمانية، والتي يعتقد أن اسمها قد اشتق من اسم سليمان حسن الهندي، والذي واصل عمله من بعده ابنه جعفر ابن سليمان. لقد ورث الأخير بوصية عند وفاته مهام والده، حوالي عام ١٦٣٣م، ورسالته إلى واحد من الدعاة العرب واسمه إبراهيم بن محمد بن فهد بن صلاح بن مكرمي. كانت هذه بلا شك بداية قصة المكارمة كهيئة دينية، رافقها النجاح بإقامة سلطة مؤقتة.

يزعم الرئيس الحالي للأسرة، وهو حسين أحمد، أنه من سلالة قحطان وقد قدَّم إلى الشيخ فؤاد حمزة إقراراً شاملاً حول شجرة نسبه والتي تضمنت ليس اسم إبراهيم الحالي، بل اسم والده محمد بن فهد بن صالح المكرمي، والذي ينظر إليه في الرواية المحلية بأنه أول المكارمة الذين استقروا في بدر.

لقد أخبرنا بأن ابنه إبراهيم الذي وصلت إليه بالتوالي عباءة النبي الهندي والذي كان اسمه جعفر بن سليمان، الذي كان يدعو لمدة ٤٤ سنة قد توفي عام ١٦٧٧م، مورثاً سلطته إلى حفيده، محمد بن إسماعيل والذي ربما كان من سلف الخط المباشر للداعي الأخير واسمه علي محسن (أو علي بن محسن) والذي لا أعرف شيئاً عن شجرة نسبه، والتي لم يسجل الشيخ فؤاد حمزة عنها شيئاً. يأتي حسين أحمد، الرئيس الحالي للأسرة، في الخط المباشر للتسلسل من والد إبراهيم محمد، وهو غير ابن آخر يسمى أحمد.

من المحتمل جداً، تبعاً لذلك، كما هو الأمر في حالة البايات في تونس مثلاً أن تَوَلِيِّ منصب الداعية يتم تناقله إلى أكبر الذكور من بين أفراد الأسرة.

أخذت أسرة المكرمي اسمها من اسم مكرم بن صبا بن حمير الأصغر والذي تمثله شجرة الأسرة التقليدية بأنه منفصل من حفيد نوح بما لا يزيد عن ١٨ جيلاً، لنقل ٥٠٠ أو ٦٠٠ عام مضت.

أنجب مكرم حسنًا، وأنجب هذا صابحاً الذي أنجب عليّاً، الذي أنجب بدوره عمر الذي أنجب عبدالله الذي أنجب بدوره محمداً الذي أنجب داؤد التامر الذي أنجب بدوره صالحاً الذي أنجب فهداً الذي أنجب بدوره محمداً الذي أنجب كلاً من أحمد وإبراهيم. أنجب إبراهيم إسماعيل الذي أنجب بدوره محمداً الذي تولى رتبة الداعي المكرمي الثاني خلفاً لجده. أحمد الابن الثاني لمحمد، وقد أنجب حسين علياً الذي أنجب حسيناً الذي أنجب علياً الذي أنجب حسيناً الذي أنجب حسناً، الذي أنجب أحمد الذي أنجب حسيناً وهو الرئيس الحالي للأسرة، والذي يحمل فرعه الاسم الخاص «ذي جدين» الذي يشير إلى الأصل المكرمي من الجانبين الأب والأم.

كان آخر الدعاة الحاكمين واسمه علي محسن قد تولى اللقب عام ١٩١٢م وتوفي، كما ذكر سابقاً، في سبتمبر ١٩٣٦م وحمل اللقب المميز «الشبام» -بلدة في اليمن غير تلك المعروفة في حضرموت- والذي يدل على أنه مكرمياً أصيلاً، على الأقل من جانب والده. حمل اللقب نفسه أحد أسلافه في منصب الداعية واسمه حسن بن إسماعيل الذي خلفه، عام ١٨٤٦م، توفي عام ١٨٧٢م، وربما كان قد تزوج من داخل الأسرة واعتبر ذا خصائص كافية لأن يكون داعياً.

ليس من المستحيل ألاَّ يكون حسن هذا هو والد حسين الذي بدوره هو والد محسن والذي هو والد آخر داعٍ، واسمه علي وفي هذه الحالة بالطبع، فإن المذكور

أخيراً لم يتسلسل عبر الخط المباشر من عند محمد بن إسماعيل، الداعي المكرمي الثاني. لقد كان الداعي السادس عشر في الترتيب، والذين فيما بينهم غطوا فترة ٣٠٣ سنة من الحكم من عام ١٦٣٣م إلى ١٩٣٦م.

يبدو أن أول الدعاة المكرميين هو إبراهيم بن محمد قد عاش وعمل طيلة أيام حكمه داعياً (١٦٣٣ – ١٦٧٧م) في طيبة في اليمن، غير أن والده، لسبب ما- ربما فقط ليتخلص منه- قد هاجر شمالاً واستقر في بدر وكان من أول المكرمين الذين يفعلون ذلك بصفته مواطناً فقط، إذ لا يوجد أي سجل يدل على أنه قد مارس أية ضرب من السلطة، على الرغم من أنه قد نجح في خلق علاقات طيبة مع قبيلة يام، والتي سيجني ثمارها في وقت لاحق.

خلف إبراهيم على طيبة حفيده محمد بن إسماعيل والذي كان قد تعرض إلى متاعب، خلال فترة الأربعين عاماً التي حكم فيها، من جهة الحكام الزيديين في اليمن. كانت نتيجة العداوات السيئة بالنسبة له، فهرب إلى القنفذة التي تقع على ساحل الحجاز. وجّهت إليه الدعوة وهو هناك بواسطة قبيلة يام في نجران، والذين استجابوا بالعقل إلى جانب عقيدته، ويعزي الشكر إلى جهد جده الأكبر، ليستقر في نجران. رحب بطلبهم وجاء إلى نجران كأول داعٍ فيها. كانت هذه وبوضوح هي الحادثة التي أشار إليها حسن المكرمي في مجمع بأنها وقعت قبل ٢٣٠ عاماً. يمكننا الآن أن نضع تاريخاً مبدئياً لهروب محمد من اليمن إلى قنفذة ووصوله إلى نجران، ولنقل أنه كان عام ١٧٠٦م. توفي محمد بعدها بأحد عشر عاماً وخلفه خاله هبة الله بن إبراهيم كداعٍ ثالث. وعند وفاة هبةالله، خلفه ابنه إسماعيل داعية رابعاً، وهو بدوره قد خلفه عند موته عام ١٧٦٠م واحد من أشهر الدعاة المكارمة في نجران، شقيقه حسن، الذي ظل يحكم حتى وفاته عام

١٧٧٤م، وخلال تلك الفترة نشر دعوة المكارمة إلى حضرموت ونجح في إدخالها إلى وسط جزيرة العرب استعداداً للهجوم على القوة النامية للدولة السعودية في كل من الدرعية والرياض. عاد منصب الداعية بعد وفاته إلى نسل محمد بن إسماعيل ومن المحتمل أنه منذ ذلك الوقت انحصر التأثير الإقليمي للمكارمة في منطقة نجران، التي كانت من أكثر المقاطعات اضطراباً وخروجاً على القانون في كل الجزيرة العربية. كان الذي تولى أمرها بعد حسن بن هبة الله هو عبدالعلي، الذي حكم مدة قصيرة، لا تزيد عن ست سنوات، كداعية سادس، وانتهت فترته عام ١٧٨٠م.

منذ ذلك الوقت ظلت الخلافة، عدا الحالتين اللتين كان الدعاة فيهما أجانب من فرع الشبام، الذي ورد ذكره، داخل الخط المباشر المنطلق من عند هبةالله. كان ابنه علي وأبناء الأخير، وهما عبدالله ويوسف قد توليا الدعوة، فأولهما هو الداعي السابع وثانيهما هو الداعي الثامن، وحفيدهما حسين بن حسن الذي كان الداعي التاسع. كان الداعيان العاشر والحادي عشر هما بالتتالي حفيدا حسن بن هبة الله وهما إسماعيل، وحسن. بينما كان ابن إسماعيل واسمه أحمد، الداعية الثالث عشر بعد حكم أول المتطفلين الأجانب واسمه حسن بن إسماعيل. كان الداعيان الرابع عشر والخامس عشر هما أحفاد أحفاد أحفاد الجد الأكبر لهبة الله، علماً بأن خطهما الوراثي الصحيح غير معروف. وهم كما يلي، عبدالله بن علي الذي توفى عام ١٩٠٥م وعلي بن هبةالله الذي توفي عام ١٩١٢م، ليفسح المجال لآخر الدعاة وهو علي محسن. هكذا كانت السلالة الحاكمة لستة عشر شخصاً حكموا نجران لما يزيد قليلاً على ثلاثة قرون- بمتوسط ١٩ سنة لكل منهم، غير أن الاثنين الأولين، وكذلك الأخير -وفيما بينهم- حكم ثلاثتهم مدة ١٠٨ سنوات،

علماً بأن الحكم كان لفترة بسيطة من الوقت في نجران، حيث حكم ١٥ داعية مدة ٢٥٠ سنة، بمتوسط ١٥ سنة فقط لكل منهم، وتجاوزت ثلاث فترات فقط منها مدة العشرين عاماً. تبقى الإشارة بعد هذا إلى أن الدعاة السليمانيين يعترفون دوماً بالسلطة التي تمركزت في رئاسة ظل في الهند -في بدر باغ والتي يعتقد أنها اشتق منها اسم بدر، أو العكس-. لا يوجد سجل قديم حسب علمي لاسم بدر في منطقة نجران.

كانت هذه هي الأجيال لحشاشي الجزيرة العربية. فماذا عن وضعهم في هذه الهضبة الصحراوية الغريبة؟ ترتفع التلال والسلاسل في الجوار المباشر لبدر بلطف بارتفاع ١٠٠ إلى ١٥٠ قدماً فوق مستوى الوادي، وفوق واحد منها، ويطل على الجانب الأيسر للوادي، تقف قلعة بدر التي تم بناؤها فوق حجر صخري طبيعي مربع ضلعه ١٥ قدماً، أسود اللون. كانت هذه الصخرة في أزمان قديمة، فيما يعتقد، تقع ضمن سيطرة المكارمية لأغراض عسكرية، مثل صهر المعادن ولعل الأفران الكبيرة التي كنت قد أشرت إليها ذات ارتباط بهذا النشاط، الذي توقف منذ زمن بعيد.

تسمى مجموعة من التلال الصخرية الرملية التي تقع على الجانب الأيمن للوادي باسم «جبل تنور» وذلك لوجود واحد منهما يشبه -إلى حد بعيد- فرناً كبيراً مستديراً قطره ٣٠ بوصة وعمقه ١٨ بوصة، وعلى الرغم من أنني لم أكن مقتنعاً تماماً إن كان هذا الحجر الفرن من عمل الإنسان أو كان طبيعياً. يحمل أعلى هذه الهضاب آثاراً لمتاريس ذات خصائص حربية. تسمى قلعة بدر محلياً باسم قشلة أو «ثكنات» لا يميزها تركيب هندسي معماري، فهي عبارة عن بناء عادي من طابقين مبني من اللبن ويعتقد أن الدعاة قد أقاموه ليؤدي وظيفة مركز للرئاسة

الإدارية والعسكرية. تعيش فيه الآن قوة الشرطة السعودية، والقلعة صغيرة إلا أنها بالتأكيد تسيطر على منظر ممتاز للمحيط المجاور.

تقع بلدة بدر نفسها، وقد انتشرت على سفوح الجانب الأيسر للوادي الذي تناثرت فيه مزارع غير منتظمة وحقول ذرة صفراء، في ثلاثة أقسام تتجه من الشمال إلى الجنوب، فوق مساحة تقدر بأربعمائه أكرات وتتألف، تقريباً من ٧٥ منزلاً. تنتشر البلدة، كما قد رأيتها من عند القلعة، على شكل وتر تغطي الربع الجنوبي الغربي مع وجود ضاحية حشا على اليسار، التي تندمج في انسياب مع الضاحية الوسطى سند التي كانت قد انفصلت بشريط من حقول الذرة الصفراء والحدائق، عرضه ٢٥٠ ياردة من عند ضاحية مضمر الشمالية إلى اليمين وعلى الجانب الفعلي للوادي، والتي تنفصل عن البقية بأرض بساتين.

لم يكن هنالك شيء جذاب في البلدة، التي -بصفة عامة- كانت تمثل مظهراً للتدمير والتآكل، غير أن بعض المنازل الكبيرة ذات الثلاث طوابق أو الأربع الخاصة بالمكارمة، خاصة في ضاحية حشا، فإنها ما زالت تحكي قصة الأيام الأحسن. يقع أكثر الأقسام المريحة في الوقت الحاضر، في البلدة، في الفلل المبعثرة التي تكون منفردة أو في مجموعات وتقع داخل الحدائق والبساتين. تقع الفلة صفر المنعزلة الوحيدة ناحية اتجاه أسفل الوادي وعلى بعد الميلين من القلعة، وبجوارها ثلاثة بيوت تابعة لحمضة تكون على يمينها، وكلها داخل حدائق جذابة بالقرب من مكان التقاء واديي بدر ومحجر. تقع قريباً منها وعلى الجانب القريب مجموعة أكبر من المساكن داخل حديقة أكبر وتسمى خضران وبها سبعة منازل. تقع صبيحة عند منتصف المسافة بين القلعة وصفر وهي فلة منفردة وملحقة بها حديقة بينما تقع القرية الصغيرة التي تسمى قضان (سبعة منازل) في داخل الحقول المكشوفة على

يمين المجرى. توجد عشرة منازل بين قضان وحشا، كلها على الجانب الأيمن، وملحقة بها حدائقها وتسمى جعران، بينما تقع الفلّتان المسميتان رحبة عند منتصف الطريق بين القلعة وقضان على الجانب الأيسر. يكتمل المنظر بوجود برج مراقبة نحيل على الجانب الأيمن للوادي ويقع قريباً من معسكرنا إلى جوار عشة حقيرة من اللبن تقع قليلاً إلى أسفل وكما يوجد مزرعتان في كل منهما بئر وكلاهما يقع أعلى موقع التقاء خنق مع خضراء، كما يوجد بئر صالح على الجانب الأيمن لخضراء، وبئر قيس على الجانب الأيسر لخنق. يبلغ عمق بئر عزيزة في مضمر حوالي تسع قامات وبرجها مبطن بألواح من صخر رملي ويبلغ قطرها ٢٠ قدماً ويتم سحب الماء منها بواسطة ستة حبال، وكان يعمل منها اثنان فقط حينما قمت بزيارته.

انتشرت أشجار نخيل طويلة هنا وهناك في القرية، وقد شمخت برؤوسها الرشيقة، غير أنها هنا في بدر، وفوق الهضبة المرتفعة بصفة عامة، فإنها كانت فقط للزينة. تحمل هذه الأشجار الثمار كطبيعة الأشياء، غير أن الثمار كانت صغيرة لا تؤكل، ويرفضها حتى البدو. يبدو أن الهضبة تقع على ارتفاع يفوق ذلك الذي يناسب الإنتاج التجاري لأشجار النخيل، والذي أتخيله أن يكون في حدود حوالي ٥٥٠٠ قدم على أقصى تقدير في هذه الأجزاء. أذكر كتاباً تم نشره أثناء الحرب العظمى لقصة مجهولة لتجسس مضاد تركزت في مدينة عربية تقع في حضن أشجار نخيل وشجيرات البن، غير أنني بالتأكيد لم أر هذه التوافقية في الحياة. كان أعظم ما تخصصت فيه بدر، هو زراعة أشجار التين، التي كان أجودها ما كان نامياً بالقرب من الوادي، حيث توجد أسوار ضخمة منها هناك وهي أكثر ما تكون تشتتاً في البساتين. كانت أشجار التين في هذا الوقت تسقط

أوراقها سريعاً، وبرغم ذلك فـهي لا تزال ذات ظل كافٍ. ينمو العنب كذلك هنا ولكن لا يجـد العناية ويقـال إنه ينتج ثمـاراً من نوعيـة مـتدنيـة. كـانت هنالك شجيـرات الرمان بكثرة ولكنها قد أهمـلت وتركت لرحمة مياه السـيول إذ لم تعد تروى بمياه الآبار- لذا كانت ثمـارها متوسطة النوعية. كانت هنالـك أيضاً أشجار الخوخ وأشجار فواكه أخرى، ولكن على مستـوى انتشار محدود، لقد انحصر كل النشاط الزراعي في بدر في زراعة الحبوب، يتخللها مـحصول برسيم معتبر والذي كان يجد تسويقاً جيداً في الجـزيرة العربية. ينتج الدخن هنا محصولين في السنة، مقابل ثلاثة أو أربعة مـحاصيل في نجران وحبونا وقد تم حصـاد محصول الخريف بالفعل. ويزرع كـل من القمح والشعـير على مدار العـام في تتابع مـتصل، على الأقل ثلاث، ربما أربعة مـرات. كان محصول أواخـر الخريف في هذا الوقت في مرحلة تكوين السنـابل، ووقت حصاده ليس بالبـعيد. بينمـا ينمو معه المحـصول التالي في المساحات المكشوفة والذي قد بلغ ارتفـاعه بوصتان، ويتوقع حصاده في أوائل مارس.

لقد وجـدت بعض الرسومات الغريبـة على صخور جبل تنور حـيث الفرن، غير أنني أستطـيع أن أؤكد، حتي هذه اللحظة، غياب النقوش حـول بدر نفسها- بمعنى أنه لا توجـد نقوش قـديمة- علماً بأن النقـوش العربيـة قليلة الفائـدة كانت متـوافرة. كان من بين الرسـوم العديدة لثعـابين تتلوى، وصورة لكائن يشبـه فرخ الضفدع وصورة لسحلية كبيـرة، -ربما تمساح-، وشيء شبه السمكة برأس مستدير تحيط به أشـعة. كـان من أميز طيـور بدر طائر الأبلق وثلاث حمـامات خـضراء (غرد). كما كـانت طيور يمام الصخور والحمام في وفـرة. إلى جانب أبلق آخر، كما تحصلت على طائر أبيض الحنجرة الأصفر ولعله كان يقضي الشتاء هنا.

هكذا كانت بدر. هرع رجل يجري نحوي، قبل مغادرتنا لها، يطلب العلاج لابنه الذي فقد سمعه حديثاً بعد هجمة للحمى. لم أستطع أن أفعل له شيئاً، وتحركنا في مسيرتنا، بينما حلق فوق رؤسنا صقر، يقال إنه يبحث عن شاة، وكان هذا أسلوب فقدانهم للشياه من حين لآخر.

هبت علينا رياح باردة حادة شرقية ونحن نصعد وادي خنق، تكون حيناً في بطنه وحيناً خارج شريطه، ونكون أحياناً ممتطين دوابنا، وأحياناً أخرى مترجلين عبر الأجزاء الصعبة المنحدرة والتي أجهدت حيواناتنا البائسة. كان معنا المرشد الجديد الذي اعترف لنا بعد أن تحركنا منطلقين بأنه لم ير مطلقاً النقوش المزعومة على سلسلة عشة أمامنا، والتي وظفه الأمير من أجلها، الذي كان قد رآها بنفسه خلال رحلاته، لأجل أن يقودنا إليها. كان في صحبتنا، لحسن الحظ، أحد رجال الأمير واسمه ضاوي، وهو أصم كالحجر، وقد صرَّح بأنه يعرف الطريق إليها. اتصلت سلسلة مبنى البيت الطويلة على يميننا تجاه الشمال مع سلسلة منخفضة تسمى مرقان ومن فوقها سلسلة سفلى تسمى عرف تبعد حوالي ستة أميال من طريقنا ناحية الشمال الشرقي.

يقال إن هذه السلسلة الأخيرة (عرف) هي رأس المسايل التي تقود إلى أسفل إلى حزيمة وإلى وادي ثار. يجري طريقنا في هذا الوقت عند منتصف المسافة بين مجريي خنق وخضراء، ويكون أقرب قليلاً إلى الأخير منهما، وهو يجري فوق سطح من حجارة رملية صعبة وتنمو عليه أشجار القرظ المبعثرة حتى إذا ما كنا على مسافة أربعة أميال من بدر وصلنا إلى مفترق الطريق، يقود فرع الطريق الأيسر، والمتجه ناحية غرب الشمال الغربي، إلى سوق الأحد ماراً ببركان قرن سبط التابع لقرية أهل صر. يقام السوق في بدر، بالمناسبة، أيام الثلاثاء تحت

الإشراف القبلي لأبي ساق. سلكنا الطريق الأيمن نازلين مع مصرف عين جربوع الضحل والذي يوجد فيه نبع «ميت» في مكان ما إلى أسفل في الطريق إلى خنق. وقد مررنا في مجراه على زرائب أغنام مبنية من الصخر لحماية الحيوانات ليلاً من الذئاب.

تحولت البلاد الآن إلى أرض شجيرات تنتشر بين مجرى عين جربوع ومجرى نعيمة وسرعان ما وصلنا إلى بئر سبكة (ينطق سبجه) وتقع داخل أخدود خنق نفسه والذي يقع رأسه الفعلي على بعد الميل الواحد تجاه شمال الشمال الغربي. يبدو أن الجمال تهوى قضم أغصان أشجار القرظ، فتركناها لذلك وذهبنا لنفحص البئر التي احتوت على ماء وافر على عمق قامة ونصف القامة، كان بعض البئر من صخر طبيعي وبعضها مدعم بالبناء عند قاعدة لصخرة ارتفاعها ٤٠ قدماً والتي لابد أن ينحدر منها شلال رائع أثناء السيول. كان هنالك رجل من أفراد قبيلة يام ومعه صبي صغير وبعض الماعز تشرب، كما مررنا بقطعان أخرى صغيرة تقوم برعايتها النسوة، تظلل هذه البئر أعداد من أشجار الآثاب (التين البري) وتعد بئراً قديمة قدم الزمن، إلاَّ أنه كان «ميتاً» حتى وقت قريب، وحيث تم حفره بواسطة مرافقي الأصم ضاوي، تحت أوامر الأمير. يوجد على الصخرة رسم جذاب لرجل مسلح بقوس وسهام مهدداً شخصاً عارياً، عديم الحيلة، رافعاً يديه إلى أعلى، رمزاً للاستسلام. كان العضو الذكري في كليهما مبالغ في تصويره، وكانت بجانبها علامة البئر وهي عبارة عن دائرة وبجوارها ١٨ نقطة.

شمخت ناحية الغرب وعلى مسافة ميل واحد السلسلة الصخرية الرملية المنخفضة التي تسمى قهرة زبيدة، وهي الموقع الذي ذكره لنا الأمير والذي توجد فيه النقوش القديمة والصور. توجهنا إلى هناك وكان الارتفاع حوالي ٧٠٠٠ قدم،

وأمضيت ساعة ونصف الساعة أنسخ هذه الوثائق القديمة، التي كانت بالفعل تستحق الزيارة، إلى جانب النزهة. تبعد قرن السبط على بعد ميل ونصف الميل من هنا.

حيث قررت أن يكون معسكرنا الليلة عند مشارف عتبة أرض جديدة. لقد انتهينا من أرض الحشاشين ومن منطقة نجران وسنكون في أرض قحطان القديمة غداً. كان معسكرنا هنا على ارتفاع ٧٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر.

obeikan.com